الفصل السابع

علوم البلاغة التقليدية
و صلتها بعلوم اللغة فى التراث

obeikandl.com

obeikandl.com

صلة علوم البلاغة التقليدية
بعلوم اللغة فى التراث(*)

علوم البلاغة التقليدية بفروعها المختلفة(١) امتداد لمباحث لغوية وقد جاءت فى التراث وكما عرض لها اللغويون العرب جزءاً من الدراسة اللغوية.

وكتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة معمر بن المثنى كان إنطلاقة دفعت كثيراً من الباحثين إلى مسارات متنوعة من البحث انتهت إلى ما عرف بعد بعلوم البلاغة.

فقد عالج أبو عبيدة فيه كيفية التوصل إلى فهم المعانى القرآنية باجتذاء أسالب العرب فى الكلام وسننهم فى وسائل الإبانة عن المعانى، وقد أفاض أبوعبيدة فى كتابه فى التمثيل بمأثور القول من منثور كلام العرب ومنظومهم فإبان أبو عبيدة كل ما يحتاج إلى بيان من القرآن الكريم مستعيناً بما يحفظ من غريب اللغة وشاردها متخذاً من ذلك شواهد على صحة فهمه.

وقد كان المسلمون فى تلك الآونة فى حاجة إلى منهج بيانى فقد كانت الحاجة لمنهج البحث البيانى ضرورة يحسها المسلم لفهم معانى القرآن ولا يتم هذا الفهم إلا بتعرف أساليب القرآن وما ينطوى وراء تعبيراته من المعانى والمقاصد، يقول ابن خلدون «إن البيان كان من العلوم التى غرسها المسلمون فى سبيل فهم كتابهم والذود عن قراءتهم وكان نماؤه بعد ذلك وتشعب مباحثه بتأثير الدين وبتوجيه المفكرين من حملته ورجاله»(٢).

(*) الدراسة هنا دراسة نماذج وأمثلة وليست دراسة إحصائية استقصائية وإلا احتاجت مصنفاً بأكمله ربما من عدة أجزاء.

(١) المقصود بالمنهج البيانى أى المنهج اللغوى آخذاً من قوله تعالى (علمه البيان) أى الإبانة باللغة. وتطورت دلالة هذا المصطلح ومفهومه إلى ما هو معروف الآن بعلم البيان لدى البلاغيين.

(٢) المقدمة، ص ٥٤٥.

ولقد اتخذ كتاب تأويل مشكل القرآن الذى كتبه أبو محمد عبدالله ابن مسلم بن قتيبه (المتوفى سنة ٢٧٦هـ) نفس الإتجاه فأراد أن يوضح كيف أن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها فى الإيجاز والاختصار والإطالة والتوكيد والإشارة إلى الشئ وإغماض بعض المعانى حتى لا يظهر عليه إلا اللّقن، وإظهار بعضها وضرب الأمثال لما خفى(١).

وقد أورد ابن قتيبة لكل آية فيها شبه أو عبارة فيها خفاء، الأمثال والنظائر من مأثور القول عند البلغاء والفصحاء الذين شهد لهم بالتمكن فى اللغة شعرها ونثرها وبرهن بذلك على أن هذا الأسلوب من النظم القرآنى ليس بخارج على الأسلوب العربى وليس بغريب على المفوهين أصحاب اللسن والحجة من العرب.

ومن المجازات فى الكلام عنده : «الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار والتعريض والإفصاح والكناية والإيضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجمع والجمع خطاب الواحد والواحد والجمع خطاب الإثنين والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم وبلفظ العموم لمعنى الخصوص وبكل هذه المذاهب نزل القرآن(٢) وكلها مباحث لغوية وتعد اللبنة الأولى فى بناء صرح علم المعانى الذى هو علم التراكيب ومهدت لما عرف فيمابعد لدى البلاغيين بعلم المعانى وهو ما يعرف لدى اللغويين بعلم (Syntax) وهو الذى وضع أسسه فى التراث عبدالقاهر الجرجانى ونشير إلى بعض الأبواب التى يستحسن الرجوع إليها مع بعض إشارات منها.

---

(١) البيان العربى، ص ١٢.

(٢) أنظر : تأويل مشكل القرآن لإبن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر. أنظر : أيضاً البيان العربى (السابق).

باب المقلوب : وهو أن يقدم ما يوضحه التأخير ويؤخر ما يوضحه التقديم ومن الأمثلة عليه قوله تعالى : ﴿الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما﴾.

(أنزل الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا).

كما أورد باباً فى الحذف والاختصار. وباباً لتكرار الكلام والزيادة فيه. وباباً سماه مخالفة ظاهر اللفظ معناه (ويقصد هنا الغرض البلاغى الذى يتلاءم مع طبيعة الموقف والحدث اللغوى بتعبيرنا اليوم).

كما عرض للمترادف، وفسر حروف المعانى ودخول بعض الحروف مكان بعض وهكذا مما يعد من المباحث اللغوية.

وكان غرضه من هذا كله بيان أن القرآن الكريم نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها فى الإيجاز والاختصار والإطالة والتوكيد والإشارة إلى الشئ، وإغماض بعض المعانى حتى لا يظهر عليه إلا اللقن وإظهار بعضها وضرب الأمثال لماخفى.

أما كتاب تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى(١) فقد تتبع نفس المسار يقول عنه محققه : «إننا نجده بجانب ذلك قد خدم اللغة خدمة لا ينتظر صدورها إلا من مثل الشريف الرضى فى علو كعبه وثبوت قدمه فى لغة العرب فهذا الفيض الغزير من العبارات الفصاح والألفاظ اللغوية والتراكيب التى جرت من العربية فى الصميم والاستعمالات التى صح ورودها عن العرب الفصحاء البلغاء هذا الفيض الفياض من الذخيرة اللغوية الحية فى الأمثال والتراكيب قد فاض به (تلخيص البيان)

---

(١) ولد الشريف الرضى سنة ٣٠٩هـ وتوفى سنة ٤٠٦هـ.

وكتاب تلخيص البيان فى مجازات القرآن حققه وقدم له بمقدمة تناول فيها مجازات القرآن عند أبى عبيدة والجاحظ وابن قتيبة والشريف وترجم للشريف وصنع فهارسه الأستاذ محمد عبدالغنى حسن.

فيضانا كانت مظنته فى كتب اللغة لا فى مجازات القرآن»(١) فمباحثه فى كلا المفهومين بالمفهوم التقليدى أوالتجديدى من مباحث علوم اللغة.

كما أن الشريف الرضى قد أورد فى كتابه هذا كثيراً من الآيات على قراءات غير القراءة المتداولة فى المصحف العثمانى وهى قراءات صحيحة غير شاذة للأئمة السبعة المروية قراءتهم بالقوائم وهم :

ابن عامر المتوفى بدمشق سنة ١١٨هـ.
ابن كثير المتوفى بمكة سنة ١٢٠هـ.
عاصم بن أبى النحود المتوفى بالكوفة أو بالسمادة سنة ١٢٧هـ.
أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤هـ.
حمزة بن حبيب الزيات المتوفى بحلوان سنة ١٥٦هـ.
نافع بن عبدالرحمن المتوفى سنة ١٦٩هـ.
الكسائى المتوفى سنة ١٨٩هـ.

وقد قصر الشريف الرضى دراسته فى هذا على البحث فى مجازات(٢) القرآن أى فى الألفاظ المستعملة فى غير ما وضعت له وكل كتابه فى هذا.

كما كانت صحيفة بشر بن المعتمر وهو أحد أئمة المعتزلة (المتوفى سنة ٢١٠هـ) والتى تناول فيها بعض القضايا التى لمسها لمساً سريعاً ولكنه فى غاية الأهمية لأنه وضع المبدأ اللغوى المشهور الذى يتخذ الأساس

---

(١) مقدمة تلخيص البيان فى مجازات القرآن للأستاذ محمد عبدالغنى حسن، ص ٢٧.

(٢) أنكر الظاهرية المجاز فى القرآن وابن القاص من الشافعية وابن خويز منداد من المالكية، وشبهتهم أن المجاز غير الحقيقة فهو كذب والقرآن منزه عن الكذب، كما أن المتكلم لا ينصرف عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا ضاقت به الحقيقة أو عجز عن التعبير بها فيستعير وذلك محال على الله القادر المنزه عن العجز. وقد رد ابن قتيبة على هذا : «بأنه لو كان المجاز كذبا.. لكان أكثر كلامنا فاسدا».

الأول فى دراسة المعنى اللغوى وهو مبدأ (مطابقة الكلام لمقتضى الحال). والذى أفاض عبدالقاهر فى تبيانه فيما بعد وكان أحد الدعائم القوية فى دراسة المعنى اللغوى عنده(١).

أما كتاب سر الفصاحة لأبى محمد عبدالله بن سعيد بن سنان الخفاجى المولود سنة ٤٢٢هـ والمتوفى سنة ٤٦٦هـ فإنه يكشف فى أكثر من موضع عن علاقة مباحث البلاغة التقليدية بالدراسات اللغوية وفى كتابه هذا دراسات لغوية على مستويات مختلفة.

فقدجعل فى كتابه البحث فى اللغة على مستويات.

فالعمل اللغوى يتكون أمامه من عبارة وتركيب والعبارة تتكون من كلمات انضم بعضها إلى بعض والكلمة تتكون من مقاطع وكل مقطع منها يتكون من أصوات ثم يذكر نبذاً من أحكام الأصوات ويبين حقيقتها ثم يذكر تقطعها على وجه يكون حروفاً متميزة. ويشير فى غير إسراف إلى مخارج هذه الحروف وإنقسام أصنافها وصفاتها ما بين مجهور ومهوس وشديد ورخو. ثم يبين أن الكلام هو ما انتظم من هذه الحروف.

ثم يتحدث عن نشأة اللغة أمواضعة هى أم توقيف ثم يتخذ من اللغة شعرها ونثرها ما يبين مراده عن الفصاحة.

ويتحدث الخفاجى عن الفصاحة وهى كما يرى نعت للألفاظ وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف وبوجود أضدادها تستحق الاطراح والذم وجعل تلك الشروط قسمين :

الأول : منها فى اللفظة الواحدة على إنفرادها من غير أن ينضم إليها شئ من الألفاظ وتؤلف معه وقد استغل فيه الأصوات للدلالة على

(١) أنظر : عالم اللغة دراسة المعنى اللغوى الأساس الرابع. ص - ٢٥.

معان خاصة وهو عمل هام من وجهة نظر البحث اللغوى ومنها.

أن تكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج وعلة ذلك عنده أن الحروف التى هى أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر ولاشك أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت فى المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ويضرب عليه الكثير من الأمثلة ومن ثم يقول : وجل كلام العرب عليه.

ثم يقول عن حروف الحلق إن لها مزية فى القبح إذا كان التأليف منها فقط وأنت تدرك هذا وتستقبحه كما يقبح عندك بعض الأمزجة من الألوان وبعض النغم من الأصوات.

والثانى : أن تجد لتأليف اللفظة فى السمع حسناً ومزية على غيرها وإن تساوياً من التأليف من الحروف المتباعدة كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حسنا يتصور فى النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه كل ذلك لوجه يقع التأليف عليه ومثاله فى الحروف عذب فإن السامع يجد لتلك الكلمة فى تصاريفها المختلفة ما لا يجده فيما يقارب هذه الألفاظ فى التأليف وليس ذلك لبعد الحروف فى المخارج فقط ولكنه تأليف مخصوص مع البعد.

وقد يكون هذا التأليف المختار فى اللفظة على جهة الاشتقاق فيحسن أيضاً كل ذلك لوقوعه على صفة يسبق العلم بقبحها أو حسنها من غير المعرفة بعلتها أو بسببها ومن أمثلته كلمة تفاوح فى قول المتنبى :

إذا سارت الأحداج فوق نباته تفاوح مسك الغانيات ورنده

يقول إن تفاوح كلمة فى غاية الحسن.

والثالث : أن تكون غير متوعرة وحشية..

والرابع : أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية.

وهذه الشروط ذات صلة قوية بمبادئ الدرس اللغوى وهو عدم الخلط فى المستويات اللغوية.

ومثله الشرط **الخامس** : وهو أن تكون الكلمة جارية على العرف العربى الصحيح غير شاذة :

أ) من التصرف الفاسد فى الكلمة.

ب) أو عبر بها عن غير ما وضعت له فى عرف اللغة.

جـ) وقد يكون إيراد الكلمة على الوجه الشاذ القليل ومنه قول البحترى :

متحيرين فباهت متعجب مما يرى أو ناظر متأمل

فباهت جاءت على وجه شاذ فالعربى المستعمل بهت الرجل يبهت فهو مبهوت وهذا يدخل فى علم الصيغ وهو مبحث صرفى من وجهة نظر الدرس اللغوى.

أو صرف مالا ينصرف.

أو منع الصرف مما ينصرف.

أو قصر الممدود أو مد المقصور.

أو حذف الإعراب للضرورة.

أو تأنيث المذكر على بعض التأويل، أو تذكير المؤنث.

وكلها كما ترى مباحث لغوية تقليدية نحوية صرفية بالدرجة الأولى. وبعد أن يضرب الأمثلة على كل هذا يقول : إن هذا وأشباهه وما يجرى مجراه، وإن لم يؤثر فى فصاحة الكلمة كبير تأثير فإنه يؤثر صيانتها عنه.

وأما الشرط **السادس** : عنده فإنه يتصل بالمباحث اللغوية الاجتماعية بالمفهوم الحديث Sociology Linguistics وهو ألا تكون الكلمة قد غير بها عن أمر آخر يكره ذكره ومثاله قول عروة بن الورد.

قلت لقوم فى الكنيف تروحوا عشـــــــية بتنـــا وإن رزخ

والكنيف أصله السائر ومنه قيل للترس كنيف غير أنه استعمل فى الآبار التى تستر الحدث واشتهر بها. ومعناه كما نقول فى علم اللغة اليوم : أن الدلالة أصابها تطور نحو الانحطاط.

والسابع : أن تكون الكلمة مصغرة فى موضع عبر بها فيه عن شئ لطيف أو خفى أو قليل أو ما يجرى مجرى ذلك وفى الدرس اللغوى : هذا مما يتصل بالنسق والسياق معاً.

وبعد أن أوفى الحديث فى الكلام عن اللفظة المفردة انتقل إلى ما ينشأ من مجموع الكلمات وهو النظم الذى يتألف من تلك الكلمات.

وهو كما ترى اتبع منهجاً لغوياً، فقد اتبع منهج دراسة اللغة على مستويات مستوى الأصوات، ومستوى الصيغ، ومستوى التراكيب ثم المستوى الدلالى وما يتأثر به ويؤثر فيه.

وكل هذا يفيد أن مباحث البلاغة التقليدية مباحث لغوية أو هى جزء من الدرس اللغوى بالمعنى الذى نفهمه. وإن ما عرض له الخفاجى يعد ذلك من رأى للرمانى من أن التأليف عن ثلاثة أضرب :

١ – متنافر.

٢ – متلائم فى الطبقة الوسطى.

٣ – متلائم فى الطبقة العليا.

ورفضه له وجعله التأليف على ضربين : متنافر، ومتلائم فقط. وأنه قد يقع فى المتلائم ما بعضه أشد تلاؤماً من بعض، ومن رأيه أن إعجاز القرآن لا يلتمس من تلك الجهة.

ثم يتحدث عن الإعراب وصلته بالتأليف ويقول :

أما جريان الكلمة على العرف العربى الصحيح فإن للتأليف بهذا عُلقة وكيدة لأن إعراب الكلمة لتأليفها من الكلام وعلى حكم الموضع الذى وردت فيه وهذا المبحث متصل بالبناء اللغوى أى بعلم التراكيب (Syntax).

وأما كتاب بدائع القرآن لإبن أبى الأصبع (المتوفى سنة ٦٥٤هـ فهو من أثر الدراسات القرآنية فى هذه المباحث وقد جاء فى مقدمته :

«وهذا كتاب هو وظيفة عمرى وثمرة اشتغالى فى إبان شبيبتى ومباحثتى فى أوان شيخوختى مع كل من لقبت من الفضلاء ونبلاء البلغاء فى علم البيان وكل من له عناية فى تدبر القرآن ونقد ثاقب لجواهر الكلام» وذكر من الفنون قرابة المائة فن.

ومما كتبه فى إئتلاف اللفظ مع اللفظ وإئتلافه مع المعنى.

١ – أن تكون الألفاظ ملائم بعضها بعضاً بأن يقرب الغريب بمثله والمتداول بمثله رعاية لحسن الجوار والمناسبة.

وهذه النقطة هامة فى المباحث اللغوية حيث أنها تشير إلى أهمية عدم الخلط بين المستويات اللغوية. وإلى الدراسة اللغوية على مستوى اللفظ المفرد... إلخ

٢ – أن تكون ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد وضرب الأمثلة لذلك من الذكر الحكيم. وهى نقطة هامة إذ أنها تشير إلى وجوب مراعاة

السياق ومقضى الحال ومقام الاستعمال وتلك من أهم النقاط فى دراسة علم المعنى.

ومن كل ما سبق نتبين حقيقتين هامتين :

١ – **أولاهما** : أن القرآن الكريم هو مفجر العلوم اللغوية فالقرآن نص لغوى أنتجت الدراسات فيه مباحث لغوية مختلفة مازالت لها أهميتها فى الدرس اللغوى التقليدى منه والتجديدى.

٢ – **ثانيهما** : أن الدراسات البلاغية التقليدية تربطها علاقة قوية بالدراسات اللغـويـة.

وأن موضوعات البلاغة التقليدية فى عمومها يمكن تفريعها فى الدراسات اللغوية على النحو الآتى :

المعانى : من نقاط البحث فى النحو بمعنى التراكيب والبناء اللغوى (Syntax)

البيان : المجاز بأنواعه يدخل ضمن علم الدلالة.

البديع : أكثره يدخل فى الدراسات الصوتية ذات الوظيفة الدلالية (Phonontylistics) .

فقد كانت الرغبة فى فهم أسرار إعجاز القرآن الكريم وإقامة الأدلة العلمية على إعجازه هى مفجر تلك المباحث.

وكل باحث منصف لا يمكن إن ينكر أثر امتزاج الثقافة العربية بغيرها من الثقافات فإن الحضارات التى سبقت المدنية الإسلامية لها أثرها فى كل تلك الدراسات وخاصة الحضارة الإغريقية. ولكنه أثر التثقف والابتكار إنه التمثل بعد الهضم الذى هو عنصر من البنية لحية يفيض منها وينبض بها.

وهو ما نراه واضحاً خاصة فى الدراسة البلاغية التقليدية وبنوع خاص عند الأعرجين الزمخشرى والسكاكى.

obeikandl.com

القسم الثانى

الفصل الأول

علوم اللغة لدى المحدثين

obeikandl.com

obeikandl.com

علوم اللغة لدى المحدثين

نعرض هنا لعلوم اللغة فى الدراسات الحديثة وسنشير إلى :

تاريخ علوم اللغة عند المحدثين والمراحل التى اجتازتها.

ومجالات هذه العلوم وموضوعاتها مع الإشارة إلى مناهج دراستها فى إيجاز.

والدراسات اللغوية فى عصرنا هذا تحظى بجهود كبيرة من علماء اللغة ومن المهتمين بها فى أنحاء العالم، فهناك جماعات لغوية متعددة ومجالات علمية متخصصة، وأبحاث تصدر تباعاً تغطى مجالات الدراسة المختلفة(١).

---

(١) من المشتغلين بالدراسات اللغوية عندنا، وتجدر الإشارة إليهم أو عن لهم أعمال وينبغى الرجوع إلى كتاباتهم، د. إبراهيم أنيس، د. عبدالحميد الدواخلى، د. تمام حسان، د. عبدالرحمن أيوب، د. كمال بشر، د. عبدالصبور شاهين، د. محمد حسن عبدالعزيز من أساتذة دار العلوم، د. على عبدالواحد وافى، د. محمود فهمى حجازى من أساتذة آداب جامعة القاهرة. ود. رمضان عبدالتواب، د. عبدالعزيز مطر من أساتذة جامعة عين شمس، والدكتور عبدالسميع محمد عميد الألسن، ود. محمود السعران، د. محمد أحمد أبو الفرج، د. عبدالرجحى، د. حلمى خليل من جامعة الاسكندرية، ود. السعيد بدوى بالجامعة الأمريكية بالقاهرة والدكتور محمد المبارك فى سوريا، والدكتور إبراهيم السامراتى فى العراق والدكتور صبحى الصالح فى لبنان والدكتور أحمد مختار عمر فى جامعة الكويت.

ومن المفيد الرجوع إلى بعض المراجع الأفرنجية فى هذا الصدد ونشير إلى بعضها على سبيل التمثيل فقط لا الحصر :

- Reading in Linguistics; The development of Descriptive Linguistics in America, 1925-56.
- Language; by Leonard Bloomfield.
- A short history of Linguistics by R.H. Robins.
- General Linguistics, An introductory Survey, R.H. Robins.
- The Study of Language. A. Survey of Linguistics and Related Disciplines in America by Gohn. B. Carroll.
- Papers in Linguistics 1934-1951 by J.R., Firth.
- Selected papers of J.R. Firth 1952-59.
- Glossary of Linguistic Terminology, Mario Pei.

وغير ذلك كثير.

غير أن الأب الحقيقى للدراسات اللغوية الحديثة هو العالم اللغوى السويسرى فردينا ندى سوسيور Ferdinand De Saussure (١٩١٣/١٨٥٧) أستاذ اللغويات بجامعة جنيف صاحب Cours De Linguistiquc Général الذى نشره بعض تلامذته سنة ١٩١٦م (بعد وفاته) وقد تحدث فى الفصل الأول من مقدمة كتابه هذا عن تاريخ علم اللغة الحديث(١).

وهو يرى أن هذا العلم مر بمراحل ثلاث :

١ – مرحلة أطلق عليه فيها اسم (علم النحو Grammaire) وقد بدأ هذه الدراسة الإغريق (Les Grecs) وحملها من بعدهم الفرنسيون وكان قائماً على أساس المنطق (Logique) دون أية نظرة علمية تهتم باللغة فى ذاتها(٢).

فقد كان هدفه فقط تنظيم قواعد (Regles) تميز الصيغ الصحيحة Forms Correctes – وغير الصحيحة. فهو نظام يصف الواقع عار عن الملاحظة الخالصة (أفقه ضيق إلى حد بعيد).

٢ – ثم ظهرت مرحلة الفيلولوجيا Philologie وقد كانت معروفة من قبل فى الاسكندرية حيث كانت هناك مدرسة فيلولوجية

---

(١) أنظر : Introduction; chapitre Premier Coup Dóeil Sur L'histoire De la Linguistigue.

وقد ترجمه الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين وقدمه فى كتابه : فى علم اللغة العام، تحت عنوان (نظرة على تاريخ علم اللغة). إقرأ : (ثانياً فى أوروبا من ص ١٣ وما بعدها).

(٢) يرى دى سوسيور أن موضوع علم الغة هو اللغة منظور إليها فى ذاتها ولذاتها. وذلك راجع عنده للتفرقة الهامة التى أقامها بين اللغة والكلام على اعتبار أن اللغة فى ماهيتها نظام اجتماعى مستقل عن الفرد فى حين أن الكلام هو بمثابة التحقيق العينى الفردى فاللغة تقنين اجتماعى أو مجموعة من القواعد (Code) والكلام عمل فردى يقوم به شخص ما فى حديثه مع من يحادثه.

إقرأ : السابق، Chapitr lv : Linguistique De la Langue Et Linguistique De la Parole P. 38.

وأقرأ : فى علم اللغة العام، للدكتور عبدالصبور شاهين من ص ٢٩. مصطلحات ثلاثة : اللغة، اللسان، الكلام.

وأنظر : مشكلة البنية، ص ٤٨، الدكتور زكريا إبراهيم.

Philologique(١) غير أن هذا المصطلح ينسب بخاصة إلى الحركة العلمية التى أنشأها فردريك أوجست ولف Friedrick August wolf ابتداء من عام ١٧٧٧م واستمر نموها تحت رعايته ولم تكن اللغة La Langue(٢) الموضوع الوحيد للفيلولوجيا ولكن كانت مهمة هذا العلم الأولى توثيق النصوص ونشرها والتعليق عليها. ولقد قادت هذه الدراسات الأولى إلى الاهتمام أيضاً بالتاريخ الأدبى L'histoire Letteraire والأخلاق Moeurs والأنظمة institutions. وكان علم الفيلولوجيا يتناول كل هذه الموضوعات بمنهجه الخاص المتمثل فى النقد Critique فإذا ما صادف مسائل لغوية تناولها فى إطار مقارنة النصوص Comparer des textes من عصور مختلفة. وتحديد اللغة الخاصة بكل مؤلف، وإحصاء المخطوطات التى يعثر عليها محررة بلغة قديمة أو غامضة. ولا ريب أن هذه البحوث قد مهدت لعلم اللغة التاريخى La Linguistique historique .

٣ – أما المرحلة الثالثة فقد بدأت عندما اكتشف إمكان مقارنة اللغات فيما بينها Comparer Les Langues entre elles . أو النحو المقارن Grammaire Comparée وفى عام ١٨١٦ ظهر كتاب نظام تصريف

---

(١) المصطلح من اليونانية القديمة وله نظائر على مستواه من حيث الاشتقاق فـ "Philo" كلمة مشتركة معناها الحب أو الصداقة تلحق بها كلمات مثل "logos" بمعنى النطق أو الكلام ومثل "Sophianos" بمعنى الحكمة وتعنى الأخيرة مصطلح علم الفلسفة أما الأولى تعنى العلم الذى نحن بصدده من حب الكلام والبحث فيه.. وهكذا.

(٢) لديسوسور ثالوث خاص به يتضمن تصورات ثلاثة متكاملة يعبر عنها بالمصطلحات La parole, La Langue - Le Langage و (اللغة) هى اللغة فى أوسع معانيها أى اللغة باعتبارها ظاهرة إنسانية عامة أما La Langue تعنى (لغة المعنية : عربية، فرنسية، انجليزية...) وتضم نظام المفردات والصيغ والنحو... فى تاريخ ما للغة ما La Lange وتلك عنده جماعية Collective واجتماعية Social ، فهى عنده اجتماعية فى جوهرها، ومستقلة عن الفرد وهى مستودع العلامات ومجموع العادات اللغوية التى تتحقق فيما يسميه La parol وهى خارجة Externe من الفرد : أنظر : Cours De Linguistique General p. 31, p.37 Cours. pp. 20-32.

السنسكريتية لفرانزبوب Franz Bopp; Systeme de La Conjugaison du Sanscrit . ودرس العلاقات التى تربط السنسكريتية بالجرمانية والإغريقية واللاتينية(١).

ولا يعد بوب أول من اكتشف هذه العلاقات. ولا أول من أكد انتماء هذه اللغات إلى أسرة واحدة Meme famille . فقد كان معروفاً من قبله على يد المستشرق الإنجليزى (و. جونس) المتوفى سنة ١٧٧٤م. غير أن الفضل يرجع لبوب فى إدراكه أن العلاقات بين اللغات المتقاربة يمكن أن تكون مادة علم قائم بذاته(٢).

---

(١) يوجد تشابه بين العناصر القديمة لهذه اللغات أفاد فى تشخيص التطور اللغوى داخل اللغات. كما أوحى ذلك أيضاً بتصور علاقة عضوية بين هذه الفصائل اللغوية وبفضل البقايا والعناصر اللغوية القديمة أمكن الاهتداء إلى نظريات لغوية هامة منها نظرية مكس مولر، "Mex Muller" التى ترجع معظم اللغات الإنسانية إلى ثلاث فصائل هى :

ـ الفصيلة الهندية الأوروبية.

ـ والفصيلة الحامية السامية.

ـ والفصيلة الطورانية.

فكل واحدة من هذه الفصائل تتشابه فى عناصرها القديمة، ولكنها تختلف فى بقية العناصر المقابلة للتطور.

(٢) Les relations entre langues parentes pouvaient devenir la matiere d'une Science auto nome.

يشير هذا القول إلى ما انتهى إليه الأمر بعلم اللغة المقارن.

ونلاحظ أن دى سوسير وهو يؤرخ لمراحل علم اللغة الحديث يشير إلى المناهج المتبعة فى الدراسات اللغوية بحيث يمكن لنا أن نتبين منها كيف ظهرت، فقد أشار فى الفقرة السابقة إلى كينية ظهور علم اللغة التاريخى، ومعلوم أن دى سوسير صاحب الفضل فى التمييز بين دراسة اللغة وفقاً للمنهج الوصفى ودراستها وفقاً للمنهج التاريخى.

وقد عرض دكتور عبده الراجحى فى كتابه «النحو العربى والدرس الحديث بحث فى المنهج» فى الفصل الأول منه تحت عنوان : النحو الوصفى النشأة والمنهج، لثلاثة من مؤسسى علم اللغة من كانت لهم آثار بالغة فى ارتياد طرائقه وتحديد أصوله وتوجيهه هذه الوجهة التي نعرفها الآن وهم :

ـ العالم السويسرى فردينانند دى سوسير.

ـ والعالم الأمريكى إدوارد سابير.

ـ والعالم الأمريكى ليونارد بلومفيلد.

كما أن له الفضل فى توضيح لغة بأخرى وشرح صيغ لغة بصيغ لغة أخرى، غير أنه لا يمكن أن يقال أنه أنشأ هذا العلم. أو على الأقل بهذه السرعة. فإن هذا أمر مشكوك فيه.

أما الفضل الحقيقى فإنه يرجع إلى اكتشاف اللغة السنسكريتية التى قدمت شاهداً ثالثاً إلى جوار الإغريقية واللاتينية فأعطت له أساس دراسة أرحب وأوسع(١).

ولم تصل هذه المدرسة إلى تأسيس علم اللغة بالمعنى الصحيح وذلك لأنها لم تكن تعن باستنباط موضوع دراستها، وبدون هذا الاستنباط يعجز

= وقد حدد أصولا ثلاثة نهض عليها منهج دي سوسيير وهى التى غيرت اتجاه الدرس اللغوى فى هذا القرن وسلكته فى ميدان الدرس العلمى الموضوعى. وبعد عرضه لها يقول : «ولعله من المفيد بعد هذا العرض أن نشير إلى ما يلى :

١ - إن إتجاه دى سوسيير إلى دراسة اللغة باعتبارها واقعة اجتماعية عامة إنما كان بتأثره بآراء دور كاييم وهى التى أدت إلى اعتبار "La Langue" ميدان البحث اللغوى.

٢ - أن رفضه للمنهج التاريخى كان رفض العارف بحقائقه وأصوله مما أدى إلى اعتبار المنهج الوصفى الطريق الوحيد لبحث اللغة على أساس علمى.

٣ - أنه هو الذى اقترح فكرة دراسة اللغة باعتبارها نظاماً من العلاقات كى يتسنى تطبيق مبادئ البحث العلمى عليها.

٤ - أنه مع تأثره بدور كاييم كان يسعى إلى أن يكون (علم اللغة) علماً مستقلا بذاته "Autonomous" ومن ثم كانت آخر جملة قالها فى محاضراته :

«إن موضوع علم اللغة الصحيح والوحيد هو اللغة فى ذاتها ومن أجل ذاتها».

"The true and unique object of Linguistics is Language Studied in and for itself."

(السابق، ص ٣٢، وإقرأ من ص ٢٣ وما بعدها).

(١) أعطى دى سوسيير مثلا من اللغات الثلاث ليبين عن طريق عرضه للعلاقات الجدولية فى كل لغة كيف أن العناصر القديمة الثابتة تظل تجمع بين لغات الفصيلة الواحدة وأنها تظل مادة علم قائم بذاته. إقرأ محاضرات دى سوسيير ص ١٥.

أى علم عن أن ير منهجه(١).

«وما أن وافى عام ١٧٨٠م حتى طرح سؤال عن الشروط التى ينبغى أن تتوفر لحياة اللغات. فقد أدرك العلماء أن العلاقات التى توجد بينها ليست سوى جوانب للظاهرة اللغوية التى تعتبر الدراسة المقارنة مجرد وسيلة ومنهج لإعادة تنظيم أحداثها(٢) (Une méthode Pour reconstituer les faits) .

أما علم اللغة بالمعنى الدقيق وهو الذى وضع الدراسات المقارنة فى مكانها الصحيح فقد نشأ من دراسة اللغات الرومانية واللغات الجرمانية على يد عالم اللغات الرومانية ديز Diez فى كتاب اللغات الرومانية نشر فى أعوام ١٨٣٦/١٨٣٨(٣).

ونتيجة لمجهود مجموعة من العلماء من أمثال وايتنى Whitney الأمريكى وبرجمان Brugmann وأستوف Osthoff وبراون Broune وسيفرس Sievers من الألمان يرجع الفضل فى وضع نتائج المقارنة فى أفقها التاريخى.

ثم إننا أصبحنا ندرك إلى أي مدى كانت الأفكار السابقة للفيلولوجيا والنحو المقارن مخطئة وناقصة(٤).

ومن الجدير بالملاحظة أنه فى إطار ذلك النطاق العام الذى عرضه دى سوسير تدور مصطلحات ذلك العلم ودراساته ومناهجه عند اللغويين

---

(١) السابق، من ص ١٣-١٥.

وإقرأ : ترجمة د. عبدالصبور شاهين فى مؤلفه السابق، من ص ١٣ إلى ص ١٥.

(٢) دى سوسيير، ص ١٨، فى علم اللغة العام، ص ١٦.

(٣) السابق.

Grammaire des Langues Romanes date de 1836/1838.

(٤) دى سوسيير، ص ١٩. فى علم اللغة العام، ص ١٦.

المحدثين فى مختلف مدارسهم وأوطانهم مع خلافاتهم المعروفة فيما بينهم.

فالمعنى المتعارف عليه لمصطلح philology فى معظم جامعات العالم.. أوروبا الشرقية والغربية وأمريكا.. هو ما يهتم بإعداد النص القديم أو النقش إعداداً علمياً للنشر على نحو ييسر للباحث استخدامه فتحقيق النصوص ومقابلتها للخروج بما هو أقرب إلى ما دونه المؤلف عمل فليولوجى كما أن إعداد النقش للنشر العلمى والاستفادة به من معرفة مضمونه الحضارى والدينى والتاريخى.. وكذلك البحث فى لغته أو خطه يدخل ضمن المفهوم الفيلولوجى.

وكذلك الدراسة الخارجية للنص التى تتبين مصادره وتكوينه وكيفية العرض فيه.

والعمل الفيلولوجى يختلف عن علم اللغة على خلاف حول المفهوم والفروق، فالمصطلح فليولوجى philologie تحدد عند الألمان(١) :

«بدراسة النصوص اللغوية دراسة تاريخية مقارنة لمحاولة فهمها، والاستعانة بذلك فى دراسة الفروع اللغوية الأخرى التى يبحث فيها علم آخر عندهم هو علم اللغة Sprachwissenschaft وكل علم من هذين العلمين لا ينفصل فى الواقع عن الآخر انفصالا حاداً. ولا يمكن لأحدهما أن يستغنى عن الآخر مطلقاً وفى هذه المسألة يقول لومل Lommel فى رسالة له بعنوان We Studiert man Sprachwissenschaft كيف يدرس علم اللغة ؟ إن علم اللغة من أهم الوسائل المساعدة للدراسات الفيلولوجية من جانب ومن جانب آخر فإنه علم قائم بذاته له وظيفة معينة وطرق وميادين معروفة، ولا يستغنى علم اللغة عن الفيلولوجا

(١) أنظر : د. رمضان عبدالتواب، ص ٩-١٠ من كتابه فصول فى علم اللغة العربية.

لأن أهم مصادره هى النصوص اللغوية والعلاقة وثيقة بين العلمين إلى درجة أن الاستعمال الشائع للكلمتين لا يكاد يفرق بينهما»(١).

ويذكر روبنز أن مصطلح philologiy يستعمل بشئ من الإختلاف عند كل من البريطانيين والألمان والفرنسيين(٢).

وهناك شبه خلط بين مفهوم ودلالة مصطلح الفيلولوجيا المقارنة Comparative philology وعلم اللغة التاريخى والمقارن(٣) Copmarative and historical linguistics فما يسمى فى إنجلترا الفيلولوجيا المقارنة Comparative philology يعنى عند الألمان علم اللغة المقارن Vergleichende Sprachwissenschaft(٤).

ويقول روبنز إن كراسى الفيلولوجيا المقارنة هى التى مهدت لوظائف علم اللغة العام قبل أن تؤسس بمدة طويلة،وأن اصطلاح الفيلولوجيا المقارنة مازال مستعملا فى بعض الأحيان ليشير إلى كل أفرع الدراسة المنهجية المنظمة للغة. ولقد تطور علم اللغة حقاً إلى حد ما عندما بعثت الدراسة المقارنة والتاريخية إهتماماً أوسع فى طبيعة اللغة وفى الطرق التى يمكن أن تحلل بها(٥).

أما فيرث J.R. Firth فى حديثه عن تاريخ الدراسات اللغوية فإنه

---

(١) السابق.

(٢) أنظر : R.H. Robins; General Linguistics An introductory Survey (Longmans 1964) p. 6.

(٣) السابق، Op. Cit. .

(٤) السابق، Op. Cit. p. 7 .

(٥) Op. Cit. P. 295 ؛ وإقرأ : موضوع :

Linguistic Comparison. 8. 1. Historically orientated Gomparison of Languages (Comparative and historical Linguistics).

يسمى أولئك الذين اتخذوا العنصر التاريخى أساساً للدراسة، والذين ربطوا بين اللغات المتشابهة (اللغات الهندية واللغات الجرامية). (وبين اللغات السامية بعضها وبعض) يسميهم علماء الفيلولوجيا المقارنة(١).

فمصطلح فيلولوجيا تدور من حوله خلافات لأسباب كثيرة منها ما ارتبط بتاريخ الدراسة وتطور المدلول من خلالها. ومنها ما سببه إتساع نطاق المباحث التى تناولتها فأحياناً يراد بها ما يشمل معظم البحوث اللغوية المعروفة فى حقل الدراسات اللغوية وأحياناً يراد بها دراسة لغة أو لغات من حيث قواعدها وتاريخ أدبها ونقد نصوصها. وأحياناً يراد بها دراسة الحياة العقلية وما تبدعه فيها أمة ما.

وما صنعه (نورمان فيرستر Norman fearster) كان له ما يبرره عند ما قسم الفيلولوجيا إلى ميدانين : فيلولوجيا لغوية. وفيلولوجيا أدبية. ففى النوع الأول يكون التركيز على المظاهر اللغوية. بينما يهتم النوع الثانى بفهم الأدب على ضوء التركيب اللغوى وتاريخه(٢).

وفرع الفيلولوجيا اللغوية Lingnistic philology له مجالاته المتنوعة ووضع القواميس واحد منها.

أما الفيلولوجيا الأدبية Literary philology فيمكن إرجاعه إلى الشروح العبرية والسكندرية القديمة. ولابد أن يعتمد الدارس كثيراً على تركيب اللغة وتاريخها عند نشر الأعمال الأدبية أو تحقيقها أو نقدها(٣).

---

(١) Papers in Linguistics 1934-1951 by J.R. Firth. Personality and Language in Society P. 177-189.

(٢) Norman Foerster; Literary Scholarship. its aims & methods, chapell Hill : University of North Carolina perss 1941.

وإقرأ : مقدمة لدراسة فقه اللغة، ص ١٥.

(٣) السابق.

وكذلك ما يذهب إليه كارول من أن «الفيلولوجيا هى الأرض الواسعة بين علم اللغة Linguistic Science من ناحية وبين الدراسات الأدبية والإنسانية من ناحية أخرى»(١).

ونحن لا نوافق على الخلط بين المصطلحين. لأننا مع من يرون وجوب التفريق وعلى سبيل المثال فإن فيرث يرفض الخلط بين المصطلحين. حيث نقل عن العالم الدانمركى هلمسلف Hielmslev نصا ينتقد فيه المنهج المنطقى Logistic فى دراسة اللغة بأنه لا يعتمد على المنهج اللغوى Philological وعلق على استعماله للفظ Philology, Philological بقوله أعتقد أن الاستعمال الإنجليزى المعاصر يختار Linguistics, Linguitic بدلاً من الكلمتين اللتين وردتا عند العالم الدانمركى(٢).

وكذلك الين Allen يرى أن التفريق بين المصطلحين (Philology Linguistics) واجب، وذلك للتفريق بين دراسة اللغة كوسيلة وبين دراستها كغاية فى ذاتها(٣).

فالفيلولوجيا تدرس اللغة كوسيلة لأشياء متعدة على نحو ما رأينا فيما مر. أما علم اللغة (Lingiuistics). فهو يدرس اللغة فى ذاتها ولذاتها.

من هنا يتبين لنا مدى اختلاف المفهوم بالنسبة لمصطلح الفيلولوجى Philology ومفهوم اللغة Language و (Linguistics) .

---

(١) Johm. B. Carroll : The Study of Language P. 3, P. 65-66.

(٢) W.S. Allen; The Linguistic Stuby of Language .

(٣) محاضرة عامة ألقاها آلين ١٩٥٧ بعد شغله كرسى الأستاذية فى جامعة كمبردج بإنجلترا ومن الجدير بالملاحظة أن الكرسى الذى شغله هو كرسى "Comparative Philology" وذلك أمر طبيعى من حيث الاطراد التاريخى، ولكنه جعل مقاله عن علم اللغة "Linguistics" على نحو ما هو واضح من عنوانه السابق.

يقول اللغوى ماريوباى Mario Pie إن موضوع الفيلولوجى Philology لا يختص بدراسة اللغات فقط، ولكن يجمع إلى ذلك دراسة تشمل الثقافة والتاريخ والتقاليد والنتاج الأدبى للغات موضوع الدراسة.

أما علم اللغة Linguistics فيرتكز على اللغة نفسها ولكن مع إشارات عابرة أحياناً إلى قيم ثقافية وتاريخية. ويولى علم اللغة معظم اهتمامه للغة المتكلمة وإن كان يوجه كذلك للغة المكتوبة شيئاً من الاهتمام.

فالحدودواضحة ونقاط الالتقاء معلومة ونقاط الاستقلال محددة.

فالعمل الفيلولوجى يستفيد من البحث فى التاريخ والأدب.. ويستفيد منه البحث فى اللغة.

obeikandl.com